٢

المناضلة

عبلة طه

يعترفن..

هؤلاء النساء يعترفن..

إحداهما عربية من نابلس

والأخرى عربية فى جنيف

الأولى شخصية فلسطينية عاشت فى سجن صهيونى أطلق عليه (نفى ترتسا) بنابلس، والأخرى، عربية – من أى بلد عربى – تعيش فى أحد أحياء جنيف الراقية (حى البودى)..

الأولى عاشت طويلا على الأرض العربية قبل أن تجد نفسها – فجأة – على الأرض الأسمنتية العارية داخل السجن..

والأخرى عاشت طويلاً على الأرض العربية قبل أن ترحل إلى المدينة السويسرية لتقضى حياتها على المقاعد الوثيرة التى أطلقت عليها – كما أكدت لى – الـ (شسترفيلد).

ولم يكن لى فضل فى هذه الاعترافات غير تسجيلها، والتنصيص الذى أتحمل مسئوليته بشكل شخصى، إما لنقل جزء من تقرير، وإما مقتطف من (مذكرة) كما هو الحال، تحديدا، حين نقلت عبارات (طبق الأصل) من تقرير محامية المرأة السجينة، وهى فيلسيا لانجر. كذلك، كما هو الحال، حين نقلت من مذكرات المرأة الأخرى، المهاجرة، ما يوضح ألفاظها الإفرنجية أو الاحتفاظ بها كما هى لتأكيد ملامح هذه المرأة..

هذه اعترافات امرأتين: يعيشان، ومازالا..

آثرت أن أنقل (المادة الخام) لاعترافاتهما، دون أن أضيف.. وهو ما قصدته، أما الفهم والتوضيح أتركه لمن يقرأ هذه السطور.. وهذه هى الاعترافات..

عبلة: اسمى، عبلة طه، عشرون عاما

يوم: كنت..

(يقول التقرير الذى كتبته محامية عبلة إنها – أى عبلة – مدرسة شابة من القدس)

يوم: كنت.. حين قبض علىَّ فى طريقى للذهاب إلى منزلى، إلى زوجى الذى كان قلقا علىَّ

جدًا، كنت غائبة منذ أكثر من ساعتين، فى عمل هام، لم يكن أول مرة، لكننى فى كل مرة لم أستطع أن أمنع نفسى من القلق الشديد حتى أتمه.

(يضيف التقرير: .. تهمتها كانت تهريب مواد متفجرة فى حقيبة، على طريق جسر اللنبى).

وفى الطريق انتقل القلق إلى شقيقتى الصغرى حين ذكرت أنها اعتقلت منذ أيام قلائل بسبب – هكذا قالوا – مساعدة عائلات السجناء، وتوزيع المنشورات المعادية للاحتلال.

(.. يقول التقرير: إن شقيقة عبلة من خريجى السجون الإسرائيلية، تنتمى إلى أسرة طرد بعضهم إلى لبنان ولم يعد واعتقل البعض الآخر وأفرج عنه أكثر من مرة).

فزعت حين فوجئت بسيارة (أو صرصور كما نسمى هذه السيارات فى الأرض العربية)، ويخرج منها أكثر من عشرة رجال يهجمون علىّ بقسوة شديدة قبل أن ينتهى الجسر، وعاملونى بفظاظة شديدة، ولم يهتموا بصياحى العالى..

(خرج من سيارة تابعة للجيش الإسرائيلى – يضيف التقرير – أحد عشر جنديًا مدججين بالسلاح، أوقفوا المرأة العربية، حدقوا طويلا فى بطاقتها الشخصية، نزعوا منها حقيبتها، استقلوها..)

يوم:

اخذوا بى إلى السجن، وهناك، ضربت بشكل قاسٍ جدًا، ومن كثرة الضرب المبرح أغمى علىّ أكثر من مرة.

(ربطوا يديها خلف ظهرها، وبدأ الجنود، بالتناوب، يضربونها، خمسة أو ستة جنود كل مرة، ولما تعبوا، تركوها، لفترة، وعادوا ثانية بعد منتصف الليل لكى يوقظوها بغلظة، ويبدأ التحقيق من جديد – التقرير)

حين تمالكت نفسى من أثر الضرب والإهانة، أجبت: إننى لا أعرف أحدا، ولم أر شيئا، ولم أرتكب ما تتحدثون عنه، سخروا منى وألقوا بى فى الزنزانة الرطبة من جديد.

(ظلت عبلة لساعات تسمع أصواتا لشباب وشابات يعذبون، وتسمع أسئلة متلاحقة لآخرين فى الزنزانات المجاورة، وترى كل ذلك بشكل متداخل مما يوحى أن ذلك كله من أجل إفزاعها: من يحط الشعارات المعادية للاحتلال على الحيطان؟ من وراء حادث النقب..؟.. إلخ)

يوم:

فى كل مرة كنت أقول لهم – من أثر الضرب الشديد – إننى حامل فيسخرون منى، ويعودون إلى الضرب المبرح بعد أن يكونوا قد وضعوا يدى خلف ظهرى ويوثقونها بشدة.

(.. إن عبلة طه كانت حاملا فى الشـــهر الســـادس بالفعل، وهو ما كشف عنه الفحص الطبى فيما بعد).

يوم:

حين يئســوا من اعترافى على الآخرين ألقوا بى – بعد العذاب المتصل – فى غرفة ســجنت فيها بائعات الهوى من اليهوديات، وقد هاجمننى هؤلاء اليهوديات وضربننى بقسوة حتى فقدت الوعى، ثم مزقن ملابسى أمام عيون رجال الشرطة..

(يؤكد التقرير أن المعتدين عليها من النساء مزقن ملابسها تمامًا وتركنها عارية تمامًا).

يوم:

أدخلونى بعد ذلك لمدة ثمانية أيام فى زنزانة بدون مرحاض. ولثلاثة أيام منعونى من الخروج لقضاء حاجتى..

(....)

يوم:

الشرطى دوبك رفستى وشتمنى، بينما كنت مستلقية ومغشيًا علىَّ من شدة الضرب، حتى إننى فى وقت ما، لم أكن أحس بأى ضرب على رغم استمرار العذاب كالمطارق..

إننى حامل، ماذا أفعل

(....)

يوم:

إننى حامل فى الشـهر الســادس، بدأت فى النزف الشــديد من أثر الضرب والتعذيب، زاد النزيف، استمر، طلبت طبيبًا، لم يستمع إلىَّ أحد..

أنــا حامــل – صحت من الخوف والألم – هددتنى الشــرطة بإخراج مــا يوجد فى بطنى إذا تكلمت (هكذا)..

أنا حامل – قلتها فى صمت وتمزق..

أنا..

يوم:

زاد الألم، وأحس الجميع من حولى بما أحس به، زميلاتى المسجونات تصايحن فى الزنزانات احتجاجًا لما يحدث لى..

(.. ألقيت الســجينات – عقابًا لهن – فى زنزانات بعد أن احتجن بشــدة على هذا الوضع المخزى)

بدأت آلامى تتزايد، وبكائى يعلو أكثر، ظلت النساء السجينات يشجعننى بصوت عال..

(.. حين زاد الضغط على إدارة السجن أخذها الجنود إلى المستشفى معصوبة العينين وأخذوا يساومونها لتتعاون معهم ضد زملائها...)

وحين عدت إلى الزنزانة ثانية ورفضت الاعتراف أو التعاون، عرفت من محاميتى أنه حكم علىَّ بالسجن أربع سنوات، لم يشغلنى غير آلام الحمل والخوف من أن ينفذوا ما كانوا يقولونه فيخرجوا أحشائى ويعبثون بجنينى.

(.. حكم على عبلة بالسجن أربع سنوات، وطالبت أنا باسم العدالة – لا الرحمة– أن تخرج السجينة لتضع مولودها خارج السجن دون جدوى.

يوم:

الألم المض يمزق أحشائى، أمضغ (الوجع)، أقبض على ملابسى، يعتصرنى الخوف، أمسك بأسنانى ملابسى، أخشى أن أصيح من الألم، أخشى أن أسمع ما يهددونى به: سنخرج ما فى بطنك إذا صحت أو تكلمت..

هناء:

اسمى هناء، هناء عبده

عمرى ثلاثون عاما

يوم:

أعيش فى جنيف – العاصمة – منذ سنوات بعيدة..

إذا أردنا تحديدا فهو من عشر سنوات على وجه التقريب..

أسكن فى حى (البودية) الهادئ، يسمونه هنا حى الأثرياء، لماذا: سألت نفسى وأجبت: ربما لأنه يؤدى إلى جسر (المون بلان) ونهر الرون..

آه، كم مللتُ هذه الأحياء الغربية التى توشى بالجمال، إنه الجمال البارد، المصقول، أى جمال هذا الذى لا يتغير قط لسنوات كثيرة، إن الملل يتسرب إلىَّ فيحيل كل شىء إلى رتابة مخيفة.

الملل فى كل مكان..

الملل، الملل يذكرنى بدقات بدر شاكر السيَّاب: مطر مطر.. إنه الملل ثم الملل..

الملل – مثلاً – أجده فى السيارات الخضراء التى تسرع كل يوم أمام بيتى، وفى هذه السيارة الخضراء التى تسرع بى كل يوم جيئة وذهابًا إلى (جسر المون بلان) فتعبره، لأصل بعد ذلك إلى حى الأزياء الراقية (بون جينيه)..

بصراحة، إننى حتى أذهب لشراء أزيائى بدافع الملل..

إننى بمجرد أن أدفع الفاتورة يجيئنى إحساس حاد أن أذهب بهذه الملابس إلى النهر وألقيها وأعود مرة أخرى، لأستمتع، هروبًا من الملل، بلحظة الشراء والدفع والذهاب، هل تصدقون..

يوم:

يوم آخر، ياه..

خليل اليوم يدعونى إلى الكلوب، لابد أن أرتدى من الفساتين التى اشتريتها أمس، هناك عدد كبير من المدعوين، خاصة هؤلاء الرجال الأثيرين لى، هؤلاء الرجال الأثرياء، جدًّا.. أصحاب الملايين، وأصحاب هذه المواهب الـ (بيزنسمانية).. فى أفعالهم وحركاتهم وعيونهم..

كم أحب هؤلاء العمليين.. المؤثرين..

آه، نسيت زوجى، إنه ينتظرنى منذ أكثر من ساعة، حين عدت إليه وجدت هذه الابتسامة الباردة، والعيون الزجاجية، إن زوجى إحدى سلالم المجد إلى مجتمع الثراء العربى فى جنيف، لمجرد أن رآنى آتية، راح يشغل نفسه بصحيفة لاسيوس، وتربيون جنيف..

استأذنت منه مرة أخرى..

عدت إلى غرفتى.. ارتديت من جديد بنطلونا (جينز)، ومعطفا من فراء الفيزون (البلاك دايمتد)، حملت أثناء الهبوط لفافة (سيجارة) لى ولزوجى.

ابتسمت لزوجى الذى كان ينهض، وهو يتناول منى اللفافة فى (الأكوافيلتر)..

خرجنا..

يوم:

حين جلسنا فى النادى أحسست بضيق كل يوم أمام هذا التليفزيون الذى مازال يذيع دمار لبنان، وخلافات الزعماء العرب، وصور (الانتفاضة)، ضقت بهذه الأشياء، إنها غريبة علىَّ هنا فى جنيف، مالى أنا وهؤلاء..

لقد انقطعت صلتى بهم وبزوجى نديم من سنوات، ربما هو مازال يورد السلاح لهذا الطرف أو ذاك فى العالم العربى، أما أنا، فلا أريد أن أعرف شيئا عن ذلك..

انقطع خيط الضيق فى رأسى حين لمحت جاك..

جاك الرجل (أورجينال) خالص.. لقد اكتشف مدى ضيقى فذهب إلى هذا الجهاز اللعين وأغلقه..

إنه ليس كزوجى يدخن كثيرًا، ولا يتحدث إلا عن صفقاته فى العالم الثالث، فإذا تحدث عنى، فأنا أيضًا، إحدى صفقاته التى يقدمها لمن يشترى فى هذا المجتمع..

إن جاك يتحدث – على العكس من زوجى – عن (فون كاريان) ويلتهم (الكتشاب)، ينظر إلىّ بنهم، اليوم سمعت حوارًا بينه وبين البارمان عونى:

– جميلة فعلاً

– جميلة، والأكثر أن جمالها يزينه تاج غباء

– لكن، لا تنسَ أنه جمال المرأة دائمًا، أنه جمال ممزوج بدهاء أنثوى.. لا تنسَ ذلك

حركت رأسى إلى بعيد، وتجاهلت النظرات..

عدت أسمع:

– هذه البنت زى السردينة، متواضعة وشهية

– ولابد أن يتم التهامها.

لجأت إلى الكأس وأنا ألجأ للغباء المحبب للجميع هنا، لمحته جاء ورائى يقول:

– هناء ألا نخرج؟!

– وما المانع – قلت بدلال – ، فقال: هيا إذن إلى الجرانج..

– ولماذا لا نذهب إلى مقهى ميديترانه، فالمقهى خير من الحديقة العامة..

يوم:

يطاردنى هذا الجهاز اللعين بالانفجارات والمشاكل، مالى أنا، لبنان، الخليج.. الـ، حمدا لله، جاء جاك، حين جلس بدأ يحرك نار موقد (الشومينيه)، قلت له فجأة:

– أين نذهب اليوم؟

– المادى مايوركا

– لا، مللت هذا الطريق

– إذن، ألا تريدين أن ترى فى منزل الأتارى قبل أن نغادر المكان تنامت إلى موسيقى برامز..

يوم:

حين دلفت إلى منزل جاك التقت عينى بعيون هذه الأسماك الملونة التى تسبح فى (الأكواريوم)..

كانت الأسماك الملونة تمضى فى خدر شديد، ولا تلوى على شىء.. لا هدف، لا طريق،.

استيقظت فجأة من خدرى وأنا أمضى إلى خارج منزل جاك بعد ثلاث ساعات..

لا أعرف لماذا، وأنا أحدق، فى عيون الأسماك فى سائل (الأكواريوم).

لا أعرف لماذا تذكرت نفسى..

المراجع والمصادر

(٥) الجدير بالذكر هنا إننا أمام حالات بطولية للأسيرات الفلسطينات، ويمكن أن نسرد الالاف من هذه البطولات، فإذا أردنا أن نتحدث عنهن بشكل حماسي مثير، يمكن أن نقول، كما يتردد فى كثير من المراجع والمواقع العربية والأجنبية، وستعيد هذه المراجع الشكل البانورامى لأولئك البطلات،

نقرأ فى هذا العديد من الدراسات منها على سبيل المثال: تجربة الأسيرات على موقع:

- http://www.ikhwan.net/asra/aseerat_ report15.htm

إن المعلومات الأولية تشير إلى أنه دخل المعتقل منذ بداية الاحتلال حتى الآن ما يقارب (عشرة آلاف) امرأة فلسطينية. وشمل الاعتقال الفتيات الصغار وكبار السن منهن، وكثيراً ما كان من بين المعتقلات أمهات قضين فترات طويلة فى السجون مثل ماجدة السلايمة وزهرة قرعوش وربيحة ذياب وسميحة حمدان وغيرهن من الأسيرات القدامى، ومثل ابتسام العيساوى وإيمان غزاوى، وقاهرة السعدى، وإيرينا سراحنة من الأسيرات الجدد.

وشهدت أكبر حملة اعتقال للنساء الفلسطينيات الفترتان ما بين (١٩٦٨ – ١٩٧٦) وفى فترة «الانتفاضة الأولى، وبالطبع فى الانتفاضة الثانية «انتفاضة الأقصى». وتعرضت الأسيرات للكثير من حملات التنكيل والتعذيب أثناء الاعتقال، وتفيد شهادات عديدة للأسيرات أنهن تعرضن للضرب والضغط النفسى والتهديد بالاغتصاب. وشكلت أعوام ٦٨ – ٦٩ وكذلك سنوات الانتفاضتين الأولى والثانية سنوات قاسية جداً فى تاريخ الحركة النسائية الأسيرة، وخاصة فى بداية التجربة الاعتقالية وبدء النضال والكفاح للدفاع عن ذاتهن داخل السجون من مخططات تدمير وتحطيم النفسية والإرادة الوطنية لدى الأسيرات.

قد خاضت الأسيرات منذ بداية تجربة الاعتقال، العديد من النضالات والخطوات الاحتجاجية والإضراب الجزئى أو المفتوح عن الطعام إلى غير ذلك من إنجاز :

- http://www.vahdet.com.tr/filistin/dokuman/kitap/kitap905/.html

(ونلاحظ هنا إننا أمام أسماء كثيرة لفدائيات فلسطينيات ومعتقلات بالفعل منهم – على سبيل المثال –: سونا الراعى، ونسرين طه، وعبير عمرو، وسعاد غزال، ومها العك، و أمنة منى، سارة عيسى عمرو، وجدان أحمد بوجة، عبير ناصر أبو خضير، هناء أبو خضير، ويتواجدن فى سجن النساء فى الرملة وفى مراكز التوقيف فى ظروف صعبة حيث تم وضعهن فى قسم السجينات الجنائيات ويتعرضن لاستفزازات يومية وتقليص فى ساعات النزهة المحددة لهن إضافة إلى حرمانهن من إدخال الأغراض اللازمة عبر الزيارات).

– أيضا انظر إلى العديد من المراجع والمصادر، انظر على سبيل المثال لمصطفى عبد الغنى:

– نقد الذات فى الرواية الفلسطينية: دار سيناء. القاهرة ١٩٩٨.

– الغيم والمطر، الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة: دار جهاد ٢٠٠٢.

الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣.

كما يمكن العود إلى كثير من مواقع «الويب» الواعية

منها على سيبل المثال : القلسطينيات الأسيرات: الواحة، انظر:

- http://www.26sep.net/newsweekarticle.php?lng= arabic&sid= 5756

- http://www.alrepat.com/vb/showthread.php?t=19808:

obeikandl.com